﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الجاثية: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

طريقة الكافرين واحدة في كثرة ظهور البيِّنات عندهم وكثرة اختلافِهم فيما بينهم بغيًا وحسدًا

لمّا عُلِمَ بهذه الحِكَمِ ما افتتحت به السّورة من أنَّ منزِّلَ هذا الكتاب عزيز حكيم، فكان التَّقدير فذلكة لذلك: لقد آتيناك الكتاب والحكم والنُّبوَّة، وفضَّلناك وأمَّتك على العالمين، وأرسلناك؛ لتنبِّه النّاس على ما أمامهم، وكان قومه بعد ائتلافهم على الضَّلال قد اختلفوا بهذا الكتاب الَّذي كان ينبغي لهم أن يشتدَّ إجماعهم به واستنصارهم من أجله؛ عطف عليه قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآيةَ؛ ليكون تسليةً لِرسوله ﷺ[1].

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى عن الكافرين استكبارَهم واستهزاءَهم بآياته مع إحسانِه تعالى إليهم وتوالي نعمِه عليهم؛ أخبر أنَّه تعالى أنعم بنِعَمٍ كثيرة على بني إسرائيل، وأنَّهم قد آتاهم الكتاب والحكمَ والنُّبوَّة مع أنَّه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغي والحسد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآيةَ، والمقصود أن يبيِّن أنَّ طريقة قومِه كطريقة من تقدَّم، فلا يأسى على القوم الكافرين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾: أصلُ (حكم) يدلُّ على المَنْعِ، وأوَّلُ ذلك الحُكْمُ، وهو المَنْعُ من الظُّلم، وكلُّ شيءٍ منعتَه مِن الفسادِ؛ فقد حكمتَه، وأحكمتَه[3]، وهو أيضًا: القضاءُ والفَصْلُ، تقولُ: حكمتُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 83.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

بينهُما؛ إذا قضيتُ، ويأتي بمعنى الشَّيء الحسَن المُتقَن، والجمع أحكامٌ، والحِكمةُ: مَرْجِعُها إلى العَدْل والعِلْم والحِلْم، ويقال: أحكَمَتْه التَّجارِبُ؛ إذا كانَ حكيمًا[1]، والحَكِيمُ: المُتقِنُ للأُمورِ[2]، والمراد بالحُكم في الآية: الحِكمةُ، أي: الفهْمُ في الدِّين وعِلْم محاسِن الأخلاقِ، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12]، ويَصِحُّ أن يكون بمعنى السِّيادة[3].

2) ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾: أصلُ (فضل) يدُلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، مِن ذلِكَ الفَضلُ: الزِّيادَةُ في الشَّيءِ[4]، سواء كان محمودًا أو مذمومًا، واستعمالُه في المحمودِ أكثر، يُقالُ: فَضَلَ الشَّيءُ فضلًا، أي: زاد، وضِدُّه: النَّقْصُ[5]، والفضلُ: الشَّرفُ والخيرُ والرِّزْقُ، ورَجُلٌ فاضِلٌ: ذو شرَفٍ وخيرٍ، والإفضالُ: الإحسانُ، والفضائلُ: خصالُ الخَيْرِ، ويأتي الفضلُ بمعنى بقيَّةِ الشَّيءِ، والجمعُ: أفضالٌ[6]، والمُرادُ بالتَّفضيل في الآية: إعطاءُ الفضل، أي: إنَّ اللّٰه تعالى جمع لبني إسرائيل بين استِقامة الدِّينِ والخُلُقِ، وبين حُكْم أنفسهم بأنفسهم، وبَثِّ أصول العَدْل فيهم، وبين حُسْنِ العيش والأمن والرَّخاء[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنوُّع النِّعم على بني إسرائيل حتَّى فضَّلهم الله تعالى على عالمي زمانِهم

يُخبِرُ اللّٰهُ تعالى أنَّه قد آتى بني إسرائيل ما لم يؤته أحدٌ من الأمم، فيقول سبحانه: ونقسم لقد أعطينا بني إسرائيل التَّوراة والزَّبور والإنجيل والقضاءَ بين النّاس والحكم بما في هذه الكتب، والنُّبوة المُعْطاةَ من عند اللّٰه؛ إذ أرسل فيهم كثيرًا من الأنبياء عليهم السلام؛

(1) الخليل، العين: (حكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(3) المراغي، تفسير القرآن: 25/ 149، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

لكثرة أمراضِهم الخلقيَّة وشدَّة مُخالفتهم، ورَزَقهم مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وفضَّلهم على عالَمِي زمانِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصل في الآية:

جاءت جملة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على طريق الوصل بالواو؛ لتكون معطوفةً على ما قبلها من عطف الموضوع على الموضوع والقصَّة على القصَّة، فإنَّه تعالى لمّا أخبر عن مكذِّبي أهل مكَّة ما فعلوه حينما نزل فيهم القرآن من الكفر والاستكبار والاستهزاء بآيات الله، وكان هذا ممّا يُحزنُ رسول الله ﷺ عطف عليه ما وقع لبني إسرائيل حين آتاهم الكتاب والحكم والنُّبوَّة؛ ليكون العطف من قبيل التَّمثيل لأمرِه ﷺ، أي: كما آمن بكتابك قومٌ، وكذَّب به قومٌ، فكذلك كتاب موسى آمن به قوم، وكذَّب به الكثيرون مع ظهور البيان وكثرة الأنبياء فيهم، فاشترك المعطوف والمعطوف عليه في الجهة الجامعة، والمقصود تسلية رسول الله ﷺ؛ لكيلا يأسى على كفر الكافرين وإنكارِهم.

كـل الكـتـب السماوية؛ آمن بها قـوم، وكفر بها آخرون

دلالةُ تتابع التَّأكيدات:

تتابعَ التَّأكيد في الآية؛ فأكَّد الخبر بلام القسم و(قَد) في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ﴾؛ لتقرير أنَّ الله تعالى قد آتاهم المذكور وتأكيده، وسبب هذا التَّأكيد تنوُّع هذه النِّعم مع جلالتها و عظمتِها وفخامتِها بما لا يقبل الشَّكَّ ولا الإنكار، ولَمّا كان الكلام القصد منه تسلية رسول الله ﷺ والمؤمنين والاعتبار بأحوال الأمم الماضية القريبة منهم؛ حسُنَ تأكيد الخبر، فمصبُّ هذا التَّأكيد والتَّحقيق هو التَّفريع في قولِه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ [يونس: 93]؛ تأكيدًا للمؤمنين

تـأكـيـدُ تـنـوُّع الـنِّـعَـمِ على بـنـي إسـرائـيـلَ مـع فـخامـتِـها واختلافهم

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 84، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 267، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 776، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 282.

بأنَّ الله تعالى يقضي بينهم وبين المشركين كشأنِه فيما حدث بين بني إسرائيل وأنبيائِهم[1].

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾:

تتنوَّعُ المقاصد والمعاني في التَّعبير بلفظ الإيتاء دون الإنزال

عبَّر بلفظ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ دون الإنزال، أي: دون أن يقال: (ولقد أنزلنا)؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ أنَّ النِّعم الَّتي أنعم الله بها على بني إسرائيل وصلتهم، ثمَّ بيان أنَّهم لم يشكروا جميعهم هذه النِّعم حقَّ الشُّكر، فكان التَّعبير بلفظ الإيتاء أقضى للمقصود، كما أنَّ الإنزال فيه تشريف لهم، والمقام مقام توبيخ وتعجيب من حالِهم، كما أنَّه لم يقل: (ولقد أعطينا)؛ لأنَّ الإيتاء فيه دلالة على سهولة الحصول، بمعنى: أنَّهم لم يتكلَّفوا في الحصول على النِّعم التي آتاهم الله إيّاها، وفي التَّعبير بلفظ الإيتاء إشعار بالقوَّة في إثبات الكتاب و الحكم والنُّبوَّة لبني إسرائيل؛ لأنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات المفعول الثاني للمفعول الأوَّل الذي هو الآخذ في المعنى، وأيضًا في التَّعبير بالإيتاء دلالةٌ على عظم النِّعم وجلالتِها، فأكثر استعمال الإيتاء في جلائل النِّعم، كقوله تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: 269]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1]، فكان الأقضى لحقِّ البلاغة استعمال ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ دون (أنزلنا).

بلاغةُ الالتفات في الضَّمائر:

تذكيرٌ بنِعَمِ بني إسرائيلَ الَّتي فضَّلهم الله تعالى بها على العالمين

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ التفاتٌ في الضَّمائر مِنَ الغَيبة إلى التَّكلُّم، فقد سبقها قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾، والعلَّة في ذلك هي التَّسجيل عليهم بإيتاء الله لهم هذه النِّعم وتولّيها بنفسه، ولكنَّهم ما رعوها حقَّ رعايتها، وفي هذا مزيدٌ من النَّعي عليهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 344.

نكتةُ التَّعبير بالماضي ﴿ءَاتَيۡنَا﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في قولِه: ﴿ءَاتَيۡنَا﴾؛ للإيذان بتحقُّق إتيان هذه النِّعم العظيمة لبني إسرائيلَ وحصولِها عندهم.

بلاغةُ إسنادِ الأفعال إلى ضمير العظمة:

أُسنِدت الأفعالُ إلى ضمير العظمة في قولِه: ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ و﴿وَرَزَقۡنَٰهُم﴾ و﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾؛ للإشعار بعظم هذه النِّعم، وأنَّه تعالى قد آتاهم هذه النِّعم، ورَزَقَهم إيّاها، وفضَّلهم على العالمين بما له من العظمة والقدرة الباهرة، فلا يقدر على فعلِها إلّا الملك الواحد الأحد، ففيه من عظيم الامتنان ما فيه، كما أنَّ التَّعبير بضمير العظمةِ في سياق ذِكر النِّعم يومئ إلى وجوب المبادرة إلى القيام بحقِّ شكرِها وتعظيم منعمِها.

التَّعبير بضمير العظمة في سياق ذكر النِّعَمِ يومئ إلى وجوب المبادرة إلى القيام بحقِّ شكرِها وتعظيم منعمِها

نكتةُ التَّعبير بالعنوانِ النَّسَبيِّ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

في الإضافة إلى إسرائيلَ في قوله: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ تذكيرٌ لليهود بذِكر نسبتِهم لهذا الأصل الطَّيّب، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرَّحمن ﷺ؛ للإشعار بأنَّهم لم يقوموا بحقِّ الشُّكر على هذه النِّعم، كما قام بها نبيُّهم يعقوب ﷺ، وأنَّهم قد خالفوا نبيَّهم الذي ينتسبون إليه، لاختلافِهم بغيًا بينهم بعد إيتائهم البيِّنات الواضحات، ففيه تقريرٌ لتسلية رسول الله محمَّدٍ ﷺ لمخالفة المشركين من قومِه له، فإنَّه مع نسبتِهم إلى إسرائيل (يعقوب) ﷺ الذي له منزلةٌ عظيمة عند ربِّه، فإنَّهم نقضوا العهد، واختلفوا، وكذَّبوا، والمراد من ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ اليهودُ؛ لأنَّهم الموجودون حولَ المدينة في عهد نزول القرآن، والمقصود: التَّمثيل بما جرى لبني إسرائيل من النِّعَم العظيمة المتوالية وما جرى منهم من المخالفات في عهد موسى رسول الله ﷺ وبعده.

بنو إسرائيل خالفوا نبيَّهم يعقوب ﷺ الذي ينتسبون إليه

الغرضُ من تقديم ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

في إسناد إتيان الكتاب إلى بني إسرائيل إشعارٌ بأنَّ النَّفع عائد إلى أمَّتهم جميعًا

قُدِّم المفعول الأوَّل ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على المفعول الثّاني ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فجاء ترتيب الكلام على مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ المفعول الأوَّل، أي: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو الآخذ، فهو الفاعل في المعنى، والمفعول الثّاني ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وما عُطفَ عليه هو المأخوذ، فهو المفعول في المعنى، وجعل إتيان الكتاب إليهم مع أنَّه في الأصل لنبيِّهم موسى عليه السلام بالإنزال إليه ولكونِه مأمورًا بالتَّبليغ والعمل بما فيه، لكنَّهم لمّا كانوا مأمورين بالتَّعبُّد به، وكان الإتيان بالكتاب نعمةً عظيمةً عليهم، والمقام مقام بيان عموم الفضائل، والنِّعم الَّتي أنعمها الله تعالى على بني إسرائيل جعل إيتاء الكتاب إليهم؛ لبيان أنَّهم لم يشكروا بمجموعِهم هذه النِّعم، ولم يؤدّوا حقَّها[1]، كما أنَّ في إسناد الإتيان إلى بني إسرائيل إشعارًا بإيجاد هذه الأمور الثَّلاثة في الأمَّة وإيجاد القائمين عليها؛ لأنَّ نفْعَ ذلك عائدٌ إلى الأمَّة جمعاء، فَكانَ كُلُّ فَرْدٍ مِنَ الأُمَّةِ كَمَن أوتيَ تِلكَ الأُمورَ[2].

فائدة (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

(الـ) في قولِه: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعهد، بقرينة ذِكر بني إسرائيل، والمراد التَّوراة[3]، وأجاز بعض المفسِّرين أن تكون (الـ) للجنس، فيكون المرادُ الكُتُبَ المنزَّلة عليهم، أي: التَّوراة والزَّبور والإنجيل؛ لأنَّ موسى وداوود وعيسى عليهم السلام كانوا في بني إسرائيل[4]، والمقام مقام امتنانٍ وتكثير للنِّعم، فناسب الامتنان بكثرة الكُتُبِ الَّتي نزلت فيهم، وفيه تعجيبٌ كذلك من حالِهم؛ إذ لم ينتفعوا بكثرة الكُتُبِ الَّتي أتتهم.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 424 - 425.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 141، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 424.

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 69، والماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 222، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 354، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 443.

نكتةُ ذِكر الكتاب دون التَّوراة:

في ذِكر الكتاب إشارةٌ إلى الأحكام المضمَّنة فيه

ذُكر الكتاب دون التَّوراة، مع أنَّها - أي: التَّوراة - اسم علم على الكتاب الَّذي أنزل على موسى ﷺ؛ لأنَّ المقام مقام ذكر النِّعم وجلالتِها على بني إسرائيل، وليس خصوص ما أنزل على موسى ﷺ، فكان ذِكرُ الكتاب أنفعَ وأكثر فائدة؛ لِما يفيده لفظ الكتاب من جمعه للحكمة والأحكام، وللإشارة إلى الكتاب الذي بين يديهم مع توالي الأنبياء وكثرتِهم عليهم.

فائدة (ال) في ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾:

التَّعريف لاستغراق لجميع الحكم

(الـ) في ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ للجنس، فيتناول الحكمةَ النَّظرية، وهي المعارف المتعلِّقة بالمعتقدات، والحكمةَ العمليَّة، وهي التَّعبُّد بالأعمال الشَّرعيَّة، كما يتناول اللَّفظ فقهَ الأحكام الَّتي في الكتاب وفصلَ الخصومات بين النَّاس؛ إذ كان الملك فيهم[1].

فائدة (ال) في ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾:

(الـ) في ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ للجنس الاستغراقيِّ، فالمرادُ جنس النُّبوَّة، فيدخل جميع الأنبياء الذين بُعثوا إلى بني إسرائيل.

نكتةُ تخصيص النُّبوَّة بالذِّكر:

إنَّما كثر في بني إسرائيل الأنبياءُ لحاجتِهم إلى البيان والتَّذكير

خصَّ النُّبوَّة بالذِّكر؛ لأنَّها من النِّعم الجليلة التي تدرك بها الأخبار العظيمة الَّتي لا يمكن اطِّلاع الخلق عليها بنوع اكتساب منهم[2]، ولأنَّ النُّبوَّة كانت ظاهرة في بني إسرائيل؛ إذ كثُرَ فيهم الأنبياء ما لم يكثروا في غيرهم، فأكثرُ الأنبياء والرُّسل من بني إسرائيل[3]، وإنَّما كثر فيهم الأنبياء لحاجتِهم إلى البيان والتَّذكير، ففي اللَّفظ إشعارٌ بكثرة النِّعم عليهم مع وفور البيان

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 289، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 425، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 71.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 84.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107.

وتبيين الأحكام، فإنَّ إتيان الكتاب والحكم من غير بيان لا تتمُّ به النِّعم، ولا تكمل.

دلالةُ التَّرتيب بين المعطوفات:

تـــرتـــيـــب المعطوفات لمعانٍ ومقاصدَ لطيفة

جاءت المعطوفات في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ مرتَّبةً بتقديم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على ما بعدها، والسَّبب هو أنَّه لمّا كان الكلام في بيان عموم النِّعم على بني إسرائيل؛ قدَّم ذِكر الكتاب، وهو التَّوراة لعموم نفعِه في وقتِ النُّزول وبعده، ولمّا كان فهْمُ الكتاب يحتاج إلى فهمٍ وحكمةٍ؛ أتبعه بقولِه: ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾، ولمّا كانت النُّبوَّة سابقةً للكتاب؛ كان مقتضى الظّاهر أن تُقدَّم النُّبوَّة على الكتاب، لكنَّه أخَّر ذِكر النُّبوَّة؛ لأنَّ المراد من (النُّبوَّة) جنس النُّبوَّة - كما تقدَّم - فلمّا أُريد مجموع أنبياء بني إسرائيل؛ اقتضى تقديم الكتاب، وهو التَّوراة على النُّبوَّة؛ لأنَّ إنزال الكتاب كان قبل الإيحاء لجملة الأنبياء، ويمكن أن يكون التَّقديم بينها من حيثُ ما هم به أعنى، وهو لهم أهمُّ، فقدَّم الكتاب؛ لأنَّهم كانوا يُفاخرون بأنَّهم أولياء الله وأحبّاؤه، وبأنَّهم أهل كتاب، ثمَّ ثنّى بالحكم؛ لأنَّهم أهل المادّيّات وأسباب القوَّة، ثمَّ ثلَّث بالنُّبوَّة؛ لأنَّهم لا يعبَؤون بها كثيرًا؛ لِما عُلِمَ مِن تكذيبِهم بهم وقتْلِهم لهم.

فائدةُ العطف في ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

اجـتـمـع لبني إسرائيلَ أصول النِّـعـم المـادّيَّـة والمعنويَّة

جاءت جملة: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بطريق الوصل معطوفةً على: ﴿ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بالواو لاشتراكِ الجملتَين في كونِهما فعليَّتين وخبريَّتين وفي الجهة الجامعة، وبيانها أنَّ الجملتين في بيان النِّعم الجليلة الَّتي أنعمها الله تعالى عليهم، ولمّا جاءت جملة: (رَزَقناهُم) معطوفةً على ﴿ءَاتَيۡنَا﴾؛ دلَّ على أنَّها في حيِّز التَّأكيد بـ(لَقَد)، والتَّقدير: ولقد رزقناهم؛ ليفيد تقرير نعمة رِزْقِهم من الطَّيِّبات وتأكيدها بما لا يقبل الشَّكَّ ولا الإنكار.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الرِّزق:

عبَّر بلفظ ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾؛ للإشعار بأنَّ ما وصلهم من الطَّيِّبات كان عطاءً جاريًا عليهم، وأنَّه كان يصل إلى جوفِهم يتغذَّون به باسترسالٍ، ففيه تمام النِّعمة، ويفيد لفظ الرِّزق أنَّه تعالى كان يفيض الطَّيِّبات عليهم بما يعطيه منًّا وفضلًا كالمنِّ والسَّلوى، وبما يسبِّبه لهم كسائر الطَّيِّبات، فيدخل في الرِّزق كلُّ ما يعطيه اللهُ العبدَ من مالٍ وخيرٍ يَطْعَم منه، ويَنْتَفِع به[1].

المرادُ من الرِّزق كلُّ ما يحطيه اللهُ العبدَ من مال وخير يَطْعَم منه ويَنْتَفِع به

فائدة ﴿مِّنَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للتَّبعيض، بمعنى: أنَّه تعالى رزقَهم من بعض الطَّيِّبات، وليس كلَّها، ففيه تعظيم لملك الله تعالى مع ما أسبغ عليهم من نعمِه الكثيرة الجليلة، مع أنَّها من بعض الطَّيِّبات، وليس كلَّها.

فائدة (ال) في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للاستغراق، بمعنى: أنَّه تعالى عنده كلُّ أنواع الطَّيِّبات الَّتي ينتفع منها العباد، وقد تفضَّل على بني إسرائيل ببعضِها مع كثرتِها وتنوُّعها.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ دون لفظ الخيرات:

عبَّر بلفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ دون أن يقال: ورزقناهم مِنَ الخيرات؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أحقُّ من غيرِه هنا لمناسبته لمقام الامتنان، فالطَّيِّب هو ما تستلذُّه الحواسُّ، وتستلذُّه النَّفس، ويكون سائغًا في الحلقِ، و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أفضل الطَّعام وأحسنُه[2]، فهي الَّتي تطيب عند النَّاس، وتحسن طعمًا ومنظرًا ونفعًا وزينةً[3]، ولا يدلُّ لفظ

لفظ (الطَّيِّباتِ) أحـقُّ من غـيرِه هـنـا لمناسبته لمقام الامتنان

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رزق).
(2) الراغب، المفردات: (طيب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

الخيرات أو غيره على خصوص هذا المعنى، وممّا يدلُّ على أنَّ لفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يُستعمل في بيان عظيم النِّعم وكثرة الامتنان أنَّه تعالى أمرَ رسله بالأكل منها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، ففي اللَّفظ تمكينٌ لأثر النِّعم على بني إسرائيلَ وشعورِهم بها، فيكون الانتفاع منها أدعى إلى القيام بشكرِها وأظهر.

دلالة جمع ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

الـطَّـيِّـبـات شملت النِّعم المحسوسة والمعنويَّة

جاء لفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بصيغة الجمع مع أنَّ (الـ) فيه للجنس، لِما يفيده الجمع من تنوُّع أفراد الطَّيِّبات؛ لأنَّ الجمع لا يكون إلّا فيما يختلف في الأوصاف والأنواع، فأفاد التَّعبير بلفظ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أنَّها كثيرة متنوِّعة، ففي اللَّفظ مبالغة في الامتنان.

فائدةُ العطف في ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾:

شـأنُ المشركين مع رسـولِ الله ﷺ كشأنِ بني إسـرائيـل مع أنبيائِهم

لمّا عطف ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ على ﴿ءَاتَيۡنَا﴾؛ أفاد أنَّ الجملة في حيِّز التَّأكيد بـ(لَقَد)؛ ليفيدَ تقرير تفضيل الله لبني إسرائيلَ على العالمين، ويستتبعه تقريرُ أنَّ شأنَ المشركين من أهلِ مكَّة مع رسولِ الله ﷺ والمؤمنين من التَّكذيب والاستهزاء كشأنِ بني إسرائيل مع أنبيائِهم مع وفور البيان وكثرتِه عند بني إسرائيل.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾:

الـفـضـلُ هو عطيَّة لا تلزم المعطي

لمّا كان الفضل بمعنى الزِّيادة عن الاقتصاد في الأمر المحمود[1]؛ كان التَّعبير بقولِه: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى قد خصَّهم بزيادة في ما هو محمود مرغوب أكثر من غيرِهم، ففيه تقرير للمبالغة في الامتنان، ولمّا تعدّى الفعل ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾؛ أفادَ علوَّهم على غيرِهم فيما فضَّلهم الله به، ولمّا

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فضل).

كان الفضل هو عطيَّة لا تلزم المعطي[1]؛ دلَّ على أنَّ تفضيلَهم نعمةٌ ومنَّةٌ منه تعالى عليهم، وليس باستحقاقِهم؛ ليفيد أنَّ الفضلَ ينزعُ بمجرَّد زوال النِّعمة عنهم.

نكتةُ التَّعبير بصيغة فعَّل:

في زيـادة المبنى تغييرٌ للمعنى

عبَّر بصيغة فعَّل في قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾؛ للإشعار بكثرة فضلِه تعالى عليهم، كما أنَّ الصّيغة تشعر بالمزيَّة، فإنَّه يقال: التَّفاضُل: التَّمازِي في الفَضْل، وفضَّله: مَزّاه، أي: صار له مزية[2]؛ ليفيدَ التَّعبير بصيغة ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ أنَّه تعالى ميَّزهم بهذا الفضل، فكانت لهم مزيَّةٌ حتَّى ظهروا، وعلَوا على النّاس في زمانِهم.

دلالة قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

في تفضيل بني إسـرائـيـل على العـالمين ابـتلاءٌ لهم

قد يقال في قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إيذانٌ بتفضيل بني إسرائيلَ على عالمي زمانِهم ووقتهم، فبماذا فضَّلهم اللّٰه؟ والجواب: هو أنَّه تعالى جمع لهم في ذلك الوقت بين استقامة الدّين والخُلُق، وبين حكم أنفسِهم بأنفسِهم وبثِّ أصول العدل فيهم وبين حسنِ العيشِ والأمن والرَّخاء، فَإنَّ أُمَمًا أخرى كانوا في بُحبوحَةٍ مِنَ العَيشِ ولَكِن يَنقُصُ بَعضَها استِقامَةُ الدِّينِ والخُلُقِ، وبَعضَها عِزَّةُ حُكْمِ النَّفسِ وبَعضَها الأمنُ بِسَبَبِ كَثرَةِ الفِتَنِ، فبهذه الوجوه فضَّلوا على غيرِهم في زمانِهم[3].

تفضيل بني إسرائيل على العالمين لا ينقص من فضل الأمَّة المحمَّديَّة:

مرتبةُ أمَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ أعلى وثوابُهم أعظم، وهم خير أمَّة

لمّا كان الكلام على بني إسرائيلَ في وقت نزول الكتاب وبعْثِ الأنبياء إليهم وقوَّة ملكِهم وظهورِهم في الأرض؛ دلَّ على أنَّ المراد بقوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تفضيلُهم على عالمي زمانِهم في

(1) الراغب، المفردات: (فضل).

(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 8/ 206، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

أيّام فرعون وعهده وما كان قريبًا منه، وليس تفضيلهم مطلقًا[1]، كما في قوله تعالى حكايةً عن قوم لوطٍ: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ [الحجر: 70]، ويدلُّ عليه تفضيل أمَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ مطلقًا في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، فقوله: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو إخبار عمّا مضى مِن شأنِ بني إسرائيل في عنفوانِ أمرِهم، لا عمّا آل إليه أمرُهم بعد أن اختلفوا بغيًا بينهم، واضمحلَّ أمرهم، ونُسخت شريعتُهم[2]، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ المراد تفضيلهم على العالمين مطلقًا من بعض الوجوه لا من كلِّها ولا من جهة المرتبة والثَّواب، أي: من حيث آتاهم الله تعالى ما لم يُؤتِ غيرهم من فلقِ البحر وإضلال الغَمام ونظائرها، فلا ينافي ذلك تفضيل أمَّة محمَّد ﷺ عليهم من وجه آخر أعظم وأشمل، وهي إرسال سيِّد السّادات محمَّد ﷺ إليهم ونزول القرآن فيهم، وغير ذلك من وجوه التَّفضيل الأخرى الكثيرة، فمرتبة أمَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ أعلى وثوابُهم أعظم، وهم خير أمَّة[3]، فعلى الوجهين لا يكون التَّفضيل من جميع الوجوه، ولا يعمُّ جميع الأزمنة؛ لأنَّ لفظ (فَضَّلنَٰهُم) مطلقٌ، فيكفي في صِدقِهِ صورة واحدة أو بعض صور التَّفضيل[4].

فائدة (ال) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الظّاهر أنَّ (الـ) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للعهد، ويكون المراد عالمي زمانِهم - كما تقدَّم - ويُحتمل أن تكون (الـ) للاستغراق، ويُقصد بالعالمين جميعُ بني آدم، ويكون المرادُ تفضيلَهم من بعض الوجوه، كما تقدَّم أيضًا.

سرُّ اختيار لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون (الناس):

عبَّر بلفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون النّاس؛ لِما يشعر به لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من تفضيلِهم على أولي العقول؛ لأنَّ اللَّفظ يغلب على العقلاء، بمعنى أنَّ لفظ: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يُطلق على

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 69، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 99، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 675، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 301.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 345.

(3) الزمخشري، الكشاف، البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107.

(4) الكفوي، الكلّيات، تح: درويش، ص: 849.

مجموع النّاس هنا مع تغليب العقلاء على غيرِهم، ففيه مبالغة في الامتنان كذلك، كما أنَّ لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مشعرٌ بالعموم المناسب لعظيم الامتنان.

المبالغةُ في الامتنان عليهم

دلالة التَّرتيب في ذِكر النِّعم على بني إسرائيلَ:

نِعَمُ الدّين أهمُّ من نِعَمِ الدُّنيا

قُدِّمَ قوله: ﴿ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ على ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، كما قُدِّمَ الرِّزق على التَّفضيل على العالمين؛ لأنَّ المقصود هو الامتنان، فقُدِّم الأهمُّ على المهمِّ؛ لأنَّ النِّعَمَ على قسمين: نِعَم الدّين ونِعَم الدُّنيا[1]، فلمّا بدأ بذكر نِعَمِ الدّين في قولِه: ﴿ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ أعقبها بنِعَمِ الدُّنيا التي تكون في الطَّيّبات ثمَّ أعقبها بذِكر نعمة التَّفضيل الَّتي تكون للذَّوات.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التَّكريم والتَّفضيل:

التَّكريمُ لجميع بني آدم، ولا تختصُّ به طائفة دون أخرى

التَّكريمُ مَزِيَّةٌ خَصَّ بها اللّه بَني آدَمَ مِن بَينِ سائِرِ المَخلوقاتِ الأرضيَّةِ، وكلُّ شيءٍ شَرُفَ في بابه؛ فإنَّه يوصَفُ بالكرم، والتَّكريم رفْعٌ لمقام المكرَّم، ولا يكون التَّكريم إلّا فيما عظم من الأمور، وأمّا التَّفضيل؛ فيكون في الأجناس كتفضيل جنس الحيوان على جنس الجماد، وفي الأنواع كتفضيل نوع الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وفي الذَّوات كتفضيل فردٍ على فردٍ أو طائفة على أخرى، والفَرْقُ بَينَ التَّفضيلِ والتَّكريمِ بالعُمومِ والخُصوصِ، فالتَّكريمُ مَنظورٌ فيهِ إلى تَكريمِ الإنسانِ في ذاتِهِ ورفعِه في مقامِه، والتَّفضيلُ مَنظورٌ فيهِ إلى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.

تَشريفِهِ فَوقَ غَيرِهِ بزيادة فيما فضَّل به عليه[1]، ففي التَّفضيل معنى التَّمايز والمفاضلة[2]، ولهذا عبَّر بقوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ دون أن يقالَ: (وكرَّمناهم)؛ لأنَّ التَّكريم لجميع بني آدم، ولا يختصُّ به بنو إسرائيل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 166.

(2) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فضل، كرم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"